

المكتبات في الأندلس ودورها في الحياة العلمية

عبد الكريم فايزي
جامعة الشهيد حمّـة لخضر – الوادي



ملخص:

ساهم التقدم العلمي والفكري بجميع صوره في ازدهار حضارة الأندلس ازدهاراً كبيراً، وكان من عوامل ذلك العناية بالكتب تأليفاً ونسخاً وقراءة، وإنشاء المكتبات، وقد ارتبط ظهور المكتبات في الأندلس ارتباطاً وثيقاً بحركة الإنتاج الفكري بها من حيث الكثرة والتنوع، وارتبطت هذه الحركة بدورها بالحياة العقلية والفكرية في البلاد وتطورها السريع في شتى مجالات العلم والمعرفة، ويعتبر نشاط المكتبة مظهراً من مظاهر الحركة والفعل الثقافي، ذلك أنها تسهم في رواج العلوم والمعارف، جديدها وقديمها، تراثها وآخر مكتشفاتها، لدى المهتمين من العلماء والمتعلمين، والدارسين وطلاب العلم، وحتى من غيرهم من مختلف طبقات المجتمع، لذلك احتلت المكتبات مكانة كبيرة لدى الأندلسيين.

Les Bibliothèques en Andalousie et son rôle dans la vie scientifique

Résumé :

Le progrès scientifique et intellectuelle sous toutes ses formes a contribué à la prospérité de la civilisation Andalousie, et il était facteurs la prolifération des livres, par les Écrire, copier, et lire, et la création de bibliothèques.

L'émergence de bibliothèques en Andalousie était étroitement liée au mouvement de la production intellectuelle , Ce mouvement, à son tour, associée à la vie mentale et intellectuelle, il à transformer la vie mentale et intellectuelle, cause le développement rapide du pays dans divers domaines de la science et de la connaissance, Ce phénomène a conduit aussi à la popularité de la science et de la connaissance, nouveaux et anciens, chez les scientifiques intéressés et instruits, et les chercheurs et les étudiants, et même d'autres de différentes Catégories de la société, de sorte que les bibliothèques occupent une place tres importante à l'andalouse .

Libraries in Andalusia and its role in the scientific life .

Abstract :

The scientific and intellectual progress in all its forms has contributed to the prosperity of the Andalusian civilization, and it was factors the prolifération of books by write, copy and read, and the creation of libraries.

the emergence of libraries in Andalusia was closely linked to the movement of intellectual production, This movement, in turn, associated with mental and intellectual life, there to transform the mental and intellectual life, it causes the rapid development of countries in various fields science and knowledge, This has also led to the popularity of science and knowledge, new and old, educated and interested in science, and researchers and students, and even other different categories of society, so that libraries occupy a very important place to the Andalusian.

مقدمة:

ازدهرت حضارة الأندلس ازدهاراً عظيماً، وقد واكب ذلك التطور وساهم فيه التقدم العلمي والفكري بجميع صوره، وكان من عوامل ذلك العناية بالكتب تأليفاً

ونسخاً وقراءةً، وكان شغف أهل الأندلس بحب اقتناء الكتب كبيراً حتى أصبحت هذه العملية ظاهرة في حد ذاتها، أسهمت بشكل بارز في تنشيط الحركة العلمية والفكرية في البلاد، هذه العوامل وغيرها مما يشابهها كانت وراء نشأة المكتبات في الأندلس، وهي التي هيأت البيئة الملائمة لتطورها وازدهارها فيما بعد.

وقد ارتبط ظهور المكتبات في الأندلس ارتباطاً وثيقاً بحركة الإنتاج الفكري بها من حيث الكثرة والتنوع، وارتبطت هذه الحركة بدورها بالحياة العقلية والفكرية في البلاد وتطورها السريع في شتى مجالات العلم والمعرفة.

فالمكتبات مهما كان نوعها، فإن أساسها الكتب والمؤلفات والمصنّفات، المتباينة الموضوعات، والمختلفة الأنماط، والمتباعدة الأعداد من حيث الكثرة أو القلّة، والمكتبة هنا تعتبر الوعاء الحاضر والمكان الحافظ لهذه الإنتاجات الفكرية، التي هي جهد المؤلفين والعلماء في البحث والدراسة والخبرة والتجربة، ويعتبر هذا كله إنعكاس طبيعي لمدى تقدم الحياة العقلية والعلمية، وحتى السياسية والاجتماعية والإقتصادية السائدة في ذلك الوقت.

ويعتبر نشاط المكتبة مظهراً من مظاهر الحركة والفعل الثقافي، ذلك أنها تسهم في رواج العلوم والمعارف، جديدها وقديمها، تراثها وآخر مكتشفاتها، لدى المهتمين من العلماء والمتعلمين، والدارسين وطلاب العلم، وحتى من غيرهم من مختلف طبقات المجتمع، لذلك احتلت المكتبات مكانة كبيرة لدى الأندلسيين، خاصة وأن هوايتهم كانت جمع الكتب، حتى صارت عملية الجمع علامة فارقة من علامات السمو والوجاهة.

أولاً: نشأة المكتبات في الأندلس:

لقد كان لظاهرة جمع الكتب واقتنائها عند الأندلسيين دورٌ كبيرٌ في توسيع دائرة الكتابة والتأليف، فأحدثت بذلك زيادة متنامية في حركة نسخ الكتب وتداولها وبيعها، وقد ساعد ذلك على نشر التعليم، حتى أصبح أغلب سكان الأندلس يتقنون القراءة والكتابة، وقد أدت كل تلك العوامل إلى إنشاء المكتبات، وخاصة في قرطبة التي أصبحت أكثر بلاد الأندلس كتباً، وغدى أهلها أشد الناس مبادرة إلى إنشاء المكتبات¹.

وكان للمكتبات في الأندلس مجموعة من الأقسام منها: قسم للتأليف، وآخر للترجمة، وقسم آخر للتدقيق والمراجعة، وقسم للنسخ، وقسم للزخرفة والتذهيب والتجليد، وللمكتبات عموماً أغراض تربوية وتعليمية وعلمية، وحضارية واجتماعية ومعرفية وتنقيفية².

كما كان للمكتبات في الأندلس مجموعة من الأقسام منها: قسم للتأليف، وآخر للترجمة، وقسم آخر للتدقيق والمراجعة، وقسم للنسخ، وقسم للزخرفة والتذهيب والتجليد، وللمكتبات عموماً أغراض تربوية وتعليمية وعلمية، وحضارية واجتماعية ومعرفية وتنقيفية³.

وقد كثرت المكتبات في الأندلس، وكانت تتاح فيها استعارة الكتب للجميع، ولا أدل على ذلك من الخبر الذي أورده "ابن حيان الأندلسي" (ت 745هـ / 1344م)، إذ كان يعيب على مشتري الكتب، ويقول: "الله يرزقك عقلاً تعيش به، أنا أيُّ كتاب أردته استعرتته من خزائن الأوقاف - أي مكتبات المساجد - وقضيتُ حاجتي"⁴.

وعن جانب مصادر تمويل المكتبة، فقد كان إيجابياً، وأن التنافس العلمي والأدبي ساهم بطريقة غير مباشرة في تمويل المكتبات، وأول هذه المصادر أصحاب المكتبات أنفسهم، فالخلفاء والأمراء والوزراء، وعلية القوم من الميسورين والأغنياء وكبار العلماء، كانوا ينشؤون مكتبات خاصة بهم ويقومون بتمويلها من مالهم الخاص، والمصدر الثاني هو الأحماس أو الأوقاف⁵، التي تعمل على صرف أجور العاملين، وجلب كل ما تحتاجه المكتبة من مستلزمات، والمصدر الثالث هو الهبات والإعانات، حيث كان أهل الخير يجودون بأموالهم تشجيعاً وعوناً لهذه المكتبات⁶.

ثانياً: أنواع المكتبات:

عندما أخذت الحركة العلمية والمعرفية في البلاد الأندلسية بالنمو والتوسع والإنتشار، زاد عدد المكتبات بها، فظهرت بأشكال وأنواع عديدة، تبعاً للجو السائد، والزخم الثقافي المتنامي، وقد ظهرت في الأندلس الأنواع الآتية من المكتبات:

أ- مكتبات المساجد أو الجوامع:

يعتبر هذا النوع من المكتبات أول الأنواع نشأة، ليس في الأندلس وحدها بل في سائر أرجاء البلاد الإسلامية، فقد جرت العادة - ولا تزال - أن يودع بعض الناس في المساجد عدداً من نسخ القرآن الكريم وبعض الكتب الدينية، لفائدة المصلين ورواد هذه

المساجد، ومن المعروف أن المسلمين اتخذوا من المساجد أماكن للدراسة والتدريس، لنشر الدين والعلم، لذلك كان كل مسجد تقريباً يحتوي على مكتبة.

وتعتبر مكتبات المساجد هي النواة التي قامت على أساسها كل أنواع المكتبات الأخرى، فكانت هناك مكتبة في كل مسجد، واحتوت هذه المكتبات على كل أنواع الكتب الدينية وثقافية، وقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد؛ ليضمنوا حفظها وإتاحتها للطلاب والدارسين⁷، فخلال مدة إقامة المسلمين الطويلة في الأندلس وُجد العديد من المكتبات الملحقة بالمساجد والتي يستخدمها الناس الذين ليس لديهم مكتبات خاصة، فقد كان من عادة العلماء أن يوقفوا كتبهم على المساجد لضمان حفظها وجعلها متاحة للطلاب والدارسين، وكانت هذه المكتبات تمثل بالكتب القيّمة ذات الخط الجميل والتجليد الرائع، والمصاحف وكتب الفقه وعلم الكلام⁸.

وقد ساهم المسلمون المستعربين لذلك بعد أن سموهم "عجم الأندلس" في البداية، ومن أشهر مكتبات المساجد في الأندلس، مكتبة جامع قرطبة، ومكتبة جامع إشبيلية، ومكتبة جامع طليطلة، وقد كان لحلقات الدرس والبحث التي تُعقد في جامع طليطلة شهرتها وأهميتها ومكانتها، التي جذبت إليها المعلمين والمتعلمين والمهتمين من كل مكان⁹.

ب- المكتبات العامة:

كان هذا النوع من المكتبات موجوداً ومنتشراً في بعض أنحاء الأندلس، وكان يُسمح بدخول هذه المكتبات للطلبة والمهتمين بالإطلاع والتنقيف، أي أنه كان يحق للجمهور العام استخدامها والإستفادة من مقتنياتها، وتشير العديد من الدراسات أنه كان في الأندلس أيام الخلافة سبعون مكتبة عمومية عدا عن المكتبات الخاصة¹⁰، وأنه كان في قرطبة وحدها عشرون مكتبة¹¹، أي أن أكثر المكتبات العامة عدداً كان موجوداً في قرطبة حاضرة البلاد، وهذا أمر منطقي، إذ جرت العادة - ولا تزال - أن تكون العاصمة في أي قطر هي مركز النقل العلمي والنشاط الثقافي.

وذكر بعض الباحثين أن الحكام في الأندلس أنشأوا في كل حيّ داراً للكتب وزوّدها بمئات الألوف من الكتب، في مختلف فروع المعرفة، وكانت مجموعاتها ما بين عشرة آلاف

ومائة ألف مجلّد¹²، وجعلوها في متناول الجميع، ومن الأمثلة على تلك المكتبات مكتبة إشبيلية العامة أيام الرازي بن المعتمد¹³.

ج- المكتبات الخاصة:

تُعدُّ المكتبات الخاصة أكثر أنواع المكتبات التي ظهرت في الأندلس، ويُقصد بها المكتبات التي تخصُّ أفراد معينين، أنشأوها على نفقتهم الخاصة، لفائدتهم ومصلحتهم الشخصية، وقد ظهرت هذه المكتبات في الأندلس في وقت مبكر¹⁴، وساعد على ظهورها وانتشارها بصورة كبيرة بين الناس "إنتشار استعمال الورق ورخص ثمنه، وهبوط أثمان الكتب، نتيجة لرخص المواد التي تُصنع منها، ولرخص أجور النسخ والتجليد"¹⁵.

ومن العوامل التي ساعدت على ظهور وانتشار المكتبات الخاصة بالأندلس أيضاً الأجواء الفكرية والسياسية التي كانت سائدة آنذاك، حيث كانت البلاد تزخر برقي حضاري، خاصة بالمدن الكبرى مثل قرطبة وإشبيلية وطليطلة ومالقة وغيرها، علاوة على تشجيع الحكام للعلم والتوسع في ذلك على نطاق واسع، و كان حكام الأندلس أنفسهم مثلاً يُحتذى في حب الكتب وجمعها والإهتمام بها¹⁶.

وحملت إلينا المصادر أسماء عددٍ كبيرٍ من أصحاب هذه المكتبات¹⁷، منهم على سبيل المثال القاضي "عبد الرحمن بن فطيس"¹⁸، الذي عُرف عنه شغفه الشديد بكتب العلم، والسعي إلى اقتنائها، وأنشأ لذلك مكتبة خاصة "وقد جمع من الكتب في أنواع العلم ما لم يجمعه أحد من أهل عصره بالأندلس ... وبلغ من كثرة كتبه أن أهل قرطبة اجتمعوا - بعد وفاته - لبيع كتبه مدة عام كامل في مسجده"¹⁹.

وقد تفتتت ظاهرة جمع الكتب في الأندلس حتى شملت مختلف طبقات المجتمع الأندلسي، خاصة الأعيان والوجهاء والميسورين منهم، وغدت المنافسة جادة بين هؤلاء، وأصبحت عملية اقتناء الكتب علامة مميزة من علامات الرفعة والسؤدد، لا يستغني الرجل منهم عن تأسيس مكتبة في بيته، حتى وإن لم يكن على قدر مناسب من المعرفة، وصار ذلك عندهم "من آلات التعيين والرياسة، حتى أن الرئيس منهم، والذي لا تكون عنده معرفة، يحتفل في أن تكون في بيته خزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصَّله وظفر به"²⁰.

وقد حظي الكثير من علماء الأندلس بمكانة رفيعة بين أفراد المجتمع، وبعلمهم احتلوا منزلة سامية بين السلطان والرعيّة على حد سواء، لهذا فقد تطلع البعض ممن من لم يتمكن من التعلم واكتساب المعرفة، إلى التشبه بأولئك العلماء، ومسايرتهم في بعض مظاهر سلوكهم، منها الإهتمام بالكتب والعناية بها وجمعها، فأقبلوا يزيّنون منازلهم بخزائن الكتب، لينالوا من وراء ذلك مكانةً وجاهاً بين الناس، وليقال أنهم من ذوي المعرفة، أو على الأقل من محبي العلم²¹.

ونجد وصفاً شامداً على ذلك ما ذكره "المقري" على لسان "أبي يحي الحضرمي" الرحالة وجامع الكتب الشهير، والذي غشى سوق الكتب في قرطبة لشراء أحد الكتب، حيث جرى العرف على أن يتم بيع الكتب بالمزاد العلني بوساطة خبير مثنّن كما أشار إلى ذلك "ياقوت الحموي" بقوله "أن الكتب كان يُنادى عليها بالمزادة"²²، وجاء على لسان الحضرمي: "أقمتُ مرةً بقرطبة ولازمت سوق كتبها مدة، أترقّب فيه وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتاء، إلى أن وقع وهو بخط فصيح وتفسير - أي تجليد - مليح، ففرحت به أشد الفرح، وجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلتُ له يا هذا، أرنى من يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه ما لا يساوي، قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوت منه وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركته لك، فقد بلغت فيه الزيادة بيننا فوق حدّه، فقال لي لست بفقيه ولا أدري ما فيه، ولكني أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيت حسن الخط جيّد التجليد، استحسنته، ولم أبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق، فهو كثير..."²³.

تُصوّر هذه القصة ما كان عليه سوق الكتب في قرطبة من رواج وازدهار، كما توضح في الوقت نفسه أن جمع الكتب واقتنائها لم يكن يُقصد به العلم دوماً، بل كان يُقصد به الرفعة والجاه أحياناً، وأخيراً يبين النص صفات وفئات جامعي الكتب من العلماء ومن غيرهم.

والعجيب أنه لم تكن الأسرة الحاكمة أو الأسر الغنية الميسورة وحدها تستمتع بترف تكوين مكتبات غنية، وإنما نجد أن هذه الهواية كانت موجودة حتى بين طبقات المجتمع الأشد تواضعاً، فمن هؤلاء معلم مغمور يمضي حياته كلها بين الصبيان يعلمهم آيات القرآن

الحكيم وبعض الأحاديث النبوية، قال "ابن الأبار" عن حزم وولده وابنته ومكتبهم الصغير الذي يعلّمون فيه الأطفال: "كان هو وابنه محمد وابنته تجمعهم في تعليمهم دار واحدة"²⁴، وهذا الرجل لا ينتسب لأسرة ابن حزم الشهيرة المعروفة التي منها الإمام ابن حزم الأندلسي. لقد كان هذا المعلم المغمور يشتغل ساعات فراغه في نسخ الكتب التي يعيرها له أصدقاؤه، ورغم أن ظروفه لا تتيح له ترف أن يستخدم لها خازناً، لكن ذلك لا يعني أنها كانت مهملّة، أو غير مرتبة، أو يجهل قيمتها، وكان أدباء قرطبة يغبطونه على دقّة مخطوطاته، وروعة بعضها، وندرة البعض الآخر، وقد أحضرها في رحلة له من المشرق استهدف بها هذه الغاية، ويمكن أن تراه في ملابس متواضعة، ويتناول طعاماً أشد تواضعاً، ولكن مكتبته تعكس بوضوح إلى أي حد يمكن أن يبلغ حب الكتب بصاحبه حتى عند أصحاب الدخل المحدودة، والأرزاق المتواضعة²⁵.

ولم يكن إنشاء المكتبات الخاصة في الأندلس مقصوراً على العلماء من الرجال فحسب، بل امتد ذلك إلى النساء أيضاً، وتمدنا المصادر بأسماء العديد من النساء ممن قمن بإنشاء مكتبات خاصة، منهن على سبيل المثال: "عائشة بنت أحمد بن قادم" (توفيت سنة 400هـ / 1010م) وهي قرطبية، يقول عنها ابن بشكوال: "لم تكن في جزائر الأندلس في زمانها من يعادلها فهماً وعلماً... وكانت تجمع الكتب وتعنى بالعلم، ولها خزنة علم كبيرة وحسنة"²⁶.

ثالثاً: مكتبة القصر في قرطبة:

تعتبر مكتبة قصر قرطبة، والتي تسميها المصادر مكتبة "الحكم المستنصر" من أهم المكتبات في الأندلس والعالم الإسلامي، فقد عني حكام الأندلس وأمرؤها وخلفاؤها بإنشائها والإشراف عليها والعناية بها، وتزويدها بكل ما يلزم من كتب ومصنفات ونساخين ومترجمين، حتى أصبحت تحوي أضخم مجموعة من التأليف والتصانيف والكتب في شتى أنواع العوم والمعارف.

يرجع تاريخ إنشاء هذه المكتبة إلى عصر "محمد الأول"²⁷، فقد عُرف عن الأسرة الأموية التي حكمت الأندلس اهتمامها بالتعليم، وعنايتها بالكتب، وقد أشار المؤرخون عند كلامهم على عصر محمد الأول إلى مكتبة القصر بأنها أحسن ما في مدينة قرطبة²⁸.

كما ذكرت المصادر أنه كان يعمل في بلاط الخليفة "عبد الرحمن الناصر"²⁹ أمهر النساخ باستمرار، ومعهم رسامون ومزخرفون، وقد اهتم الخليفة الناصر بالشعر والأدب، وحفل بلاطه بالعلماء والأدباء يأتونه من كل حدب و صوب، وقد اشتهر عن الناصر أيضاً شغفه بالكتب، ما جعله يهتم بمكتبة القصر وذلك بتزويدها بكل ما هو نفيس من الكتب³⁰.

وفي تلك الأيام بدأ كل من ولديه الأميرين "الحكم" و"محمد" دراستهما تحت إشراف معلمين من أهل الأندلس ومن خارجها، وقد ظهر شغفهما المتزايد بالكتب إلى درجة جعلتهما لا يرضيان عن الكتب الموجودة في مكتبة أبيهما، فبدأ يتنافسان في جمع الكتب، ويتباريان أيهما يستطيع أن يجمع أكبر عدد وأفضل اختيار من الآخر، وأنشأ كل واحد منهما مكتبة خاصة به، وعندما توفي محمد آلت كتبه لأخيه الحكم وورثها عنه³¹.

تولّى "الحكم المستنصر"³²، الخلافة بعد وفاة أبيه الناصر، وقد أسهبت المصادر والمراجع التاريخية - قديمها وحديثها - في الحديث عنه والإشادة به، وذكرت مدى شغفه بالكتب والمكتبات، ومقدار اهتمامه بالعلم والعلماء، وقد تميزت فترة حكمه بنشاط علمي وثقافي متعدد الجوانب، وتطور واضح في الحياة الفكرية في البلاد، وازدهار في الحركة العلمية.

وقام الخليفة "الحكم" بضم الكتب التي احتوت عليها مكتبته إلى كتب أخيه محمد التي ورثها عنه، إلى مكتبة أبيه الناصر، وهكذا أصبحت مكتبة القصر في ذلك الوقت أكبر مكتبة في البلاد الأندلسية كلها.

ولم يتوقف "الحكم" عند هذا الحد، بل إنه خصص أموالاً ضخمة للإنفاق على عملية شراء الكتب "حتى غصّت بها بيوته، وضائق عنها خزائنه"³³، كما قام بنشر رجاله في كل مراكز الثقافة الإسلامية يبحثون له عن النادر من الكتب والمخطوطات، ويدفعون أعلى الأثمان للحصول عليها، بل وكانوا يصادقون تجار الكتب في كل مكان ليدلوهم على ما صدر منها وما هو في طريقه إلى الصدور، وكثيراً ما كانوا يشترون الكتب من مؤلفيها مباشرة لتظهر في الأندلس قبل أن ترى النور في العراق أو الشام أو مصر، حيث كان لدى "الحكم" إصرار كبير في أن يكون أول قارئ لما يصدر من الكتب الجديدة³⁴، وعن اهتمامه بالكتب وجمعها يقول "المقري": "كان محباً للعلوم، مكرماً لأهلها، جمّاعاً للكتب في أنواعها، بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله"³⁵.

ويبدو أن اهتمام الخليفة الحكم المستنصر بالكتب لم يعرف حدوداً ولا قيوداً، بل كان شغفه بها عاماً ينسحب على كل ألوان المعرفة "وجمع في بقية أيام أبيه ثم في مدة ملكه من بعده ما كاد يضاهاه ما جمعه ملوك بني العباس في الأزمان الطويلة، وتهياً له ذلك إفراط محبته للعلم، وبُعد همّته في اكتساب الفضائل، وسمو نفسه إلى التشبّه بأهل الحكمة من الملوك، فكثرت تحرك الناس في زمانه قراءة كتب الأوائل، وتعلم مذاهبهم"³⁶.

ويذكر "ابن حزم" محتويات مكتبة المستنصر فيقول: "وأخبرني (قليد) الفتى - وكان على خزنة العلوم بقصر بني مروان بالأندلس - أن عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربعاً وأربعون فهرسة، في كل فهرسة خمسون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين فقط"³⁷، ويشير النص إلى ضخامة ما حوته المكتبة من كتب، كما يسلب الضوء على ما كانت عليه المكتبة من تنظيم، وذلك بضمّها لفهارس خاصة بكل المواضيع.

وعن عدد ما كان في المكتبة من كتب يقول "المقري": "إنه - يقصد المستنصر - جمع من الكتب ما لا يُحدّ ولا يُوصف كثرةً ونفاةً، حتى قيل أنها كانت أربعمئة ألف مجلّد، وأنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها"³⁸، وقد أشار إلى هذا العدد الهائل من الكتب الكثير من الباحثين المحدثين، ممن كتبوا عن "الحكم" وتعرضوا لسيرته العلمية³⁹، بل إن بعضهم ذكر بأن المكتبة ضمت نصف مليون من الكتب القيّمة⁴⁰، فيما ذهب آخرون إلى أنها اشتملت على ستمئة ألف مجلّد، وأن فهرس أسماء تلك الكتب كان يتألف من أربعة وأربعين مجلّداً⁴¹.

وربما يكون هذا الرقم الكبير مبالغ فيه، ولا يُستبعد أن إطلاقه على محتويات المكتبة قد أتى للدلالة على الإزدهار العلمي الكبير الذي عرفه عصر المستنصر، كما أن مصادر التاريخ الأندلسي الأولى لم تشر إلى تلك الأرقام المذكورة، فلم يُشر إليها ابن الفرضي، أو الحميدي، أو الضبي، أو ابن بشكوال، أو ابن الأبار.

ومهما يكن من أمر فإن مكتبة قصر قرطبة، أو مكتبة الحكم المستنصر كانت مكتبة عظيمة، تحتوي على ذخائر نفيسة من الكتب والتأليف والتصانيف العلمية⁴²، لم يجمع مثلها أي خليفة في الإسلام، وبلغ من ضخامة محتويات تلك المكتبة أن اشتهر أمرها في الأوساط العلمية في العالم الإسلامي، وأصبحت مثلاً بارزاً على الإزدهار العلمي والنشاط الفكري، حتى غدت أعظم خزائن الكتب في البلاد الإسلامية.

رابعاً: المكتبات في عصر العامريين والطوائف:

تولّى الخلافة بعد الحكم المستنصر ابنه "هشام المؤيد"⁴³، والذي كان مُعتزلاً عن إدارة شؤون البلاد بسبب تسلُّط الحاجب "المنصور بن أبي عامر"⁴⁴، وقد كان للمنصور مكتبة كبيرة اختص بها هو وولده من بعده، وكان يقوم على النظر فيها والإشراف على محتوياتها العالمة الوراق "محمد اللغوي"⁴⁵، وكان لمهارته في الخط وشؤون الوراقة أثر في معرفته الجيدة بالكتب وصيانتها والإشراف عليها، والعمل على إصلاح ما قد يكون في خطوطها من أخطاء، وكان يقوم على فحص المجلدات ويقابل بين نسخها، هذا إلى جانب براعته في التاريخ فقد ألف مُصنِّفاً في تاريخ العامريين⁴⁶، وفي ذلك دلالة على ما كان للمنصور ابن أبي عامر من إسهامات بالغة الأثر في الحياة العلمية والفكرية في الأندلس في عصره، وتمنّعه بروح علمية واهتمام بالكتب.

وقد شهد عصر الطوائف في الأندلس بروز العديد من المكتبات التي قام بإنشائها عددٌ من ملوك الطوائف أنفسهم، وبعض وزراءهم وعلمائهم، فقد كان "بنو عباد" في إشبيلية وقرطبة، و"المظفر" ملك بطليوس، و"بنو هود" في سرقسطة، و"المأمون" في طليطلة، و"مجاهد" في دانية، ممن اشتهروا باقتناء خزائن عظيمة من الكتب.

فبنو عباد مثلاً، كان لإهتمامهم العميق بالشعر أثرٌ بالغٌ في انصرافهم إلى جمع الكتب واقتناء نفائسها، وخاصة فيما يتعلّق منها بالأدب والشعر، هذا إلى جانب ما تجمّع لديهم من كتب كثيرة ومختلفة، صنّفها لهم علماء دولتهم وأدباء بلاطهم، فقد كانوا يملكون مكتبة عامرة بالكتب⁴⁷، واشتهر من بني عباد باقتناء الكتب "شرف الدولة ابن المعتمد"، الذي وصفه ابن اللبانة بقوله: "حريصٌ على طلب الأدب، مسارِعٌ في اقتناء الكتب، مثابِرٌ على نسخ الدواوين"⁴⁸.

كما كان "المظفر" ملك بطليوس في مقدمة ملوك عصره علماً وأدباً، وهو الذي ذاع صيته بما صنّفه من موسوعة أدبية ضخمة سماها "المظفرى"، ومن غير شكّ فقد كان يملك خزانة كتب كبيرة ساعدته على تأليف كتابه الذي يدل على سعة اطلاع، ومعرفة واسعة بالأدب⁴⁹.

وكان "المقتدر" ملك سرقسطة، ومن بعده ابنه "المؤتمن"، ثم ابنه "المستعين"، كانوا يملكون خزانة عظيمة من الكتب القيّمة، وخاصة ما يتعلق منها بعلم الأوتل،

كالتب والرباضيات والفلك، وقد كان المقتدر وابنه المؤتمن من علماء الرياضيات، ولهما فيها تصانيف رفيعة، لا يمكن أن يقوما بتأليفها إلا إذا توفرت لديهم مصادر المعرفة من الكتب المختلفة.

وعُرف عن "المأمون بن ذي النون" ملك طليطلة اهتمامه بالكتب وسعيه في اقتنائها، وقد دفعه شغفه بها إلى انتهاب مكتبة العلامّة "عبد الله الأورشي"⁵⁰، نزيل بلنسية⁵¹، وقد كان المأمون مُحبًّا للكتب، مُجدًّا في اقتنائها، وبسبب تلك النزعة العلمية لديه، فقد أقدم علماء كثيرون وفي شتى فروع المعرفة بإهدائه مؤلّفاتهم، منهم على سبيل المثال المؤرّخ الكبير "ابن حيان" الذي أهدى إليه كتابه "المتين"⁵².

وتذكر المصادر بأن "مجاهد العامري" صاحب دانية، كان مُحبًّا للكتب، ساعياً في اقتنائها، حتى "جمع من دفاتر العلوم خزائن جمّة"⁵³.

كما أمدتنا المصادر بأسماء جملة من الوزراء وكبار العلماء والأغنياء، الذين اشتهروا في عصر الطوائف بجمع الكتب وإنشاء المكتبات، والعناية بها⁵⁴، وقد اجتمع لديهم في مكتباتهم تلك أعداد ضخمة من الكتب والمصنّفات والتأليف في مختلف أنواع العلوم والمعارف.

خامساً: الدور الحضاري والعلمي للمكتبات في الأندلس:

ساهمت المكتبات بدورٍ فعّال في عملية الاتصال بين العلماء؛ حيث عملت على إمداد المؤلفين الأندلسيين بمصادر للمعلومات كان لها تأثيرٌ على مؤلّفاتهم فيما بعد، كما وفّرت تلك المكتبات الكتب النادرة والموجودة في المشرق، سواءً توفرت هذه الكتب في مكتبات خاصة، أو شبه عامة، أو عامة، حتى أتاحت للمؤلفين - وإن لم يسافروا إلى خارج الأندلس - أن يحصلوا على المعلومات التي يريدونها من داخل تلك المكتبات⁵⁵.

ونتيجةً لتلك الحركيّة الثقافية في الأندلس نشأت حضارة شامخة، ارتكزت على مجموعة من الركائز، من أبرزها توفير الكتب للعامة، فانتشرت المكتبات في طول البلاد وعرضها، وتعلّق الأندلسيون بالكتب تعلّقاً لافتاً، وانتشرت موجة حب الكتب والقراءة بين جميع طبقات المجتمع الأندلسي بلا استثناء.

وبفضل توفر الكتب وكثرة المكتبات انتشرت الثقافة في العالم الإسلامي، وشملت جميع طبقات الناس، فقد كان نظام المكتبات يشجع الناس على الإقبال عليها؛ لما يجدونه

من العناية والنفقة السخية والإقامة المريحة، فينكبُّون على القراءة والنسخ والمطالعة، لا يزعجهم همٌّ، ولا يشغلهم خوف⁵⁶.

كما ساهم انتشار المكتبات في تنشيط حركة التأليف في الأندلس؛ حيث تفرَّغ عددٌ كبيرٌ من العلماء في مختلف المجالات للتأليف، نتيجة توفر المكتبات ووجود عددٍ لا بأس به في كل مدينة أندلسية، كما كانت تلك المكتبات تفتح أبواب المعرفة أمام الجميع، وأتاحت لهم فرصة الاطلاع على كتب وعلوم جديدة لم تكن متاحة لعدد كبير من الناس، ولعبت دورًا في تثقيفهم، وجعلت من بينهم المفكرين والعلماء والأدباء، وأمدَّتهم بما يحتاجون إليه في تأليف كتبهم⁵⁷.

لم تكن تلك المكتبات مجرد خزائن كتب، وإنما كانت مؤسسات تعليمية وتربوية أيضًا؛ فقد كانت أشبه ما تكون بالمدارس والجامعات، وبالتالي أسهمت بنصيبٍ وافرٍ في العملية التعليمية، فكانت مكانًا لعقد حلقات الدرس والمحاورات والمناقشات بين العلماء وأهل العلم، مما يتيح الفرصة للطلاب لعرض الأسئلة والاستفسارات وتلقِّي الإجابة عنها.

خلاصة:

تعتبر المكتبات بصفة عامة، من أهم دعائم الحضارة؛ فهي تقوم بحفظ وصيانة كنوز المعرفة وتنظيمها وإتاحتها للجميع، كما أنها تعطي صورة صادقة لمدى اهتمام الشعب الأندلسي بالفكر والعلم والعلماء، وإنشاء المكتبات العامة والخاصة يعكس حب المسلمين للعلم، وحرصهم على نشره بين الناس، وتقديرهم البالغ لأهله وطلابه، وإن إنشاء المكتبات والعناية بالكتب كان من مفاخر الحضارة الإسلامية ومآثرها التي فاقت بها سائر الحضارات.

إن هذا اللون من النشاط العلمي، والمتمثل في الإهتمام الواسع بالكتاب، والسعي في اقتنائه، وإنشاء المكتبات لحفظه ولسهولة الوصول إليه عند الحاجة، وبذل كل ما يلزم ذلك من جهد ومال في سبيل تحقيق تلك الغاية، سواء من الحكام والخلفاء والأمراء، أو من الوزراء والأغنياء وكبار العلماء، أو من بقية أفراد المجتمع الأندلسي، يُعدُّ بحق صفحة مشرقة في تاريخ الفكر الأندلسي، وفيه دلالةٌ أيضًا على الرقي العلمي والإزدهار الحضاري الذي كان يعيشه المجتمع الأندلسي في ذلك العصر.

- الهوامش:

- ¹ - حامد الشافعي دياب، الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1998م، ص 97.
- ² - المرجع نفسه، ص 219 - 226.
- ³ - جاسم بن محمد القاسمي: تاريخ الحضارة العربية الإسلامية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، 1999م، ص 151.
- ⁴ - المقري، نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (1388هـ / 1968م)، ج 7، ص 376 - 377.
- ⁵ - للتوسع بخصوص الوقف ودوره في تمويل المكتبات في الأندلس أنظر: أنور محمود زناتي، الوقف على المكتبات في الحضارة الإسلامية (الأندلس نموذجاً)، دورية كان التاريخية، العدد السادس عشر، جوان 2012م، ص 40 - 44.
- ⁶ - حامد الشافعي دياب، المرجع السابق، ص 123 - 124.
- ⁷ - محمد محمد أمان، الكتب الإسلامية، ترجمة سعد الضبيعان، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1990م، ص 59..
- ⁸ - رضا سعيد مقل: تاريخ المكتبات الإسلامية في الأندلس، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 2009م، ص 89.
- ⁹ - دي بور، ت. ج، تاريخ الفلسفة في الإسلام، ترجمة محمد عبد الهادي أبو ريده، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م، ص 418..
- ¹⁰ - عمر كحالة، مقدمات ومباحث في حضارة العرب والإسلام، مطبعة النجار، دمشق، (1394هـ / 1974م)، ص 244، محمد فريد وجدي، دائرة معرف القرن العشرون، دار الفكر، بيروت، 1979م، ص 62، محمد عجاج الخطيب، لمحات في المكتبة والبحث والمصادر، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، 1980م، ص 40، محمد محمد أمان، المرجع السابق، ص 66.
- ¹¹ - زيغريد هونكه، شمس العرب تسطع على الغرب، تعريب فاروق بيضون وكمال دسوقي، مراجعة فاروق عيسى الخوري، منشورات المكتب التجاري، بيروت، ط 2، 1969م، ص 499..
- ¹² - المرجع نفسه، ص 449 - 450..
- ¹³ - حسين مؤنس، تاريخ الجغرافيا والجغرافيون في الأندلس، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط 2، 1986م، ص 38.
- ¹⁴ - عبد الستار الحلوجي، لمحات من تاريخ الكتب والمكتبات، دار الثقافة، القاهرة، 1982م، ص 39.
- ¹⁵ - محمد ماهر حمادة، المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرهما، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط 2، (1398هـ / 1978م)، ص 86..

16 - حامد الشافعي دياب، المرجع السابق، ص 101.

17 - خوليان ريبيرا، المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، ترجمة جمال محمد محرز، مجلة معهد المخطوطات العربية، 1958م، مج 4، ج 1، ص 425.

18 - هو القاضي أبو المطرف عبد الرحمن بن فطيس (ت 402هـ / 1007م)، ينتسب إلى أحد الأسر القرطبية الواسعة الثراء، وكان يملك حياً بأكمله يقوم حول البيت الذي يسكن فيه، وقد أمر ببناء مكتبة خاصة برع المهندسون فيها، تولى القضاء والوزارة في عهد الحاجب المنصور ابن أبي عامر وقلماً اجتمع ذلك لأحد في الأندلس، ابن بشكوال، كتاب الصلة في تاريخ علماء الأندلس، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مطابع سجل العرب، القاهرة، 1966م، ج 1، ص 255.

19 - ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 1، ص 298 - 299.

20 - المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 462 - 463.

21 - سعد عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر الخلافة في الأندلس، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، (1418هـ / 1997م)، ص 112 - 113.

22 - ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (1397هـ / 1977م)، ج 3، ص 63.

23 - المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 463.

24 - ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، نشره وصححه عزت العطار الحسيني، مطبعة السعادة، القاهرة، 1953م، ج 1، ص 321.

25 - خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس، ترجمة الطاهر مكي، دار المعارف، القاهرة، ط 2، 1994م، ص 165.

26 - ابن بشكوال، المصدر السابق، ج 2، ص 654.

27 - هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكم (238 - 273هـ / 851 - 886م) خامس أمراء الدولة الأموية في الأندلس، حكم الأندلس لخمسة وثلاثين عاماً، قضاها في مقاومة الثورات والاضطرابات المتلاحقة في عهده، كان محباً للعلم، مُقرباً لأهل الأدب، فجمع حوله صفوة الشعراء والعلماء، المقري، المصدر السابق، ج 3، ص 143، ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، دار الثقافة، بيروت، 1980م، ج 2، ص 94 - 99.

28 - خوليان ريبيرا، المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، ص 433.

29 - أبو المطرف عبد الرحمن الناصر لدين الله (300 - 350هـ / 912 - 961م)، ثامن حكام الدولة الأموية في الأندلس، وأول خلفاء قرطبة بعد أن أعلن الخلافة في مستهل ذي الحجة من عام 316هـ، والمعروف في الروايات الغربية

بعبد الرحمن الثالث تمييزاً له عن جديه عبد الرحمن بن معاوية (الداخل) وعبد الرحمن بن الحكم (الأوسط)، استطاع عبد الرحمن الناصر إخماد التمردات الداخلية والخارجية على سلطة الدولة، فاستعاد هيبتها وبسط سلطته على كافة أنحاء دولته، وبفضل الاستقرار السياسي والمغانم العسكرية، انتعشت الأندلس في عهده اقتصادياً وعسكرياً. المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 379.

30 - سعد عبد الله البشري، المرجع السابق، ص 133.

31 - ابن الأبار، الحلة السيرة، تحقيق حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر، القاهرة، ط 1، 1963م، ج 1، ص 200 - 206.

32 - الحكم المستنصر بالله (350 - 366هـ / 961 - 976م)، تاسع أمراء الدولة الأموية في الأندلس وثاني خلفاء الأندلس بعد أبيه عبد الرحمن الناصر، كان عصره امتداداً لفترة زهوة الدولة الأموية في الأندلس الذي بدأ في عهد أبيه، وقد اشتهر الحكم بعشقه للعلم واقتناء الكتب، ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج 1، ص 200، المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 395.

33 - ابن الأبار، الحلة السيرة، ج 1، ص 201.

34 - حامد الشافعي دياب، المرجع السابق، ص 111.

35 - المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 386 - 395.

36 - صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، مطبعة التقدم، القاهرة، ص 88.

37 - ابن حزم الأندلسي، جمهرة أنساب العرب، تحقيق عبد السلام هارون، دار المعارف، القاهرة، ط 3، 1391هـ، ص 100، ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر، دار العلم للملايين، بيروت، (1388هـ / 1968م)، ج 4، ص 146.

38 - المقري، المصدر السابق، ج 1، ص 395.

39 - عبد الرحمن الحجي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، دار العلم، بيروت، ط 1، 1976م، ص 317، السيد عبد العزيز سالم، قرطبة حاضرة الخلافة، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1972م، ج 2، ص 162، وانظر أيضاً:

Thomas Irving, Falcon of Spain, London, 1962, P 192, Titus Burckhardt, Moorish culture in Spain, translated by Alisa Jaffa, London, 1972, P 37.

40 - زيغريد هونكه، المرجع السابق، ص 353.

41 - عمر كحالة، المرجع السابق، ص 243 - 244.

42 - من المؤسف أنه لم يبق أي كتاب من الكتب التي كانت تضمها مكتبة الحكم المستنصر، إلا أن ليفي بروفنسال أشار إلى أنه عثر على مجلدٍ منها في فاس، وهو يحمل تاريخ 359هـ / 969م، وفيه دلالة على أنه نسخ لأمر الخليفة الحكم، أنظر: ليفي بروفنسال، حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان فرقوط، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ص 65.

43 - أبو الوليد هشام المؤيد بالله (366 - 403هـ / 976 - 1013م) عاشر الحكام الأمويين للأندلس وثالث خلفائهم في قرطبة، خلف أباه الحكم المستنصر عام 366هـ، وهو في سن الثانية عشر تحت وصاية أمه. شهدت خلافته بداية انحسار دولة بني أمية في الأندلس بعد أن كانت قد بلغت أقصى درجات عظمتها في عهد جده الناصر وأباه الحكم، حيث سيطر الحاجب المنصور بن أبي عامر على مقاليد الحكم، وأسس دولة داخل الدولة، ظل هشام المؤيد إسمياً خليفة للأندلس حتى عام 399هـ، عندما خلعه ابن عمه محمد المهدي بالله، وظل حبيساً إلى أن أُعيد للحكم مرة أخرى عام 400هـ، ولكن لفترة قصيرة حيث قُتل عام 403هـ، ابن عذاري، المصدر السابق، ج 2، ص 248 - 249.

44 - الحاجب المنصور أبو عامر محمد بن أبي عامر (366 - 392هـ / 976 - 1002م) حاجب الخلافة والحاكم الفعلي في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيد. بدأ حياته السياسية وتدرّج في المناصب منذ عهد الخليفة الحكم المستنصر، وكان على علاقة وطيدة بزوجة الخليفة صبح البشكنجية أم الخليفة هشام المؤيد، والتي كانت وصية على عرش ولدها بعد وفاة زوجها الحكم. عاينت صبح الحاجب المنصور على إقصاء جميع منافسيه، ولكنه حجر على الخليفة الصبي، وقيد سلطته هو وأمه. وسّع المنصور الدولة شمالاً، وحرك بحملاته العسكرية حدود الممالك المسيحية في الشمال إلى ما وراء نهر "دويرة"، فبلغت الدولة الأموية في الأندلس أوج قوتها في عهده. المقري، المصدر السابق، ج 3، ص 287 - 288.

45 - هو محمد بن عبد الرحمن بن معمر اللغوي القرطبي (ت 423هـ / 1031م).

46 - ابن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، ج 1، ص 384.

47 - سعد عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، معهد البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي، المملكة العربية السعودية، (1406هـ / 1986م)، ص 216.

48 - المقري، المصدر السابق، ج 4، ص 69، نقلاً عن ابن اللبانة.

49 - سعد عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص 216.

50 - هو عبد الله بن حيان الأورشلي (ت 487هـ).

51 - يحدثنا الضبي نقلاً عن ابن علقمة في تاريخه "أن ابن ذي النون صاحب بلنسية، أخذ كتب الأورشلي من داره، وسيفه إلى قصره ذلك مائة عدل وثلاثة وأربعون عدلاً من أعدال الحمّالين، يقدر كل عدل منهم بعشرة أرباع، وقيل أنه كان قد أخفى منها نحو الثلث"، الضبي، بغية الملتبس في تاريخ رجال الأندلس، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1967م، ص 343 - 344.

⁵² - ابن بسام، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، (1399هـ / 1979م)، ق 1، ج 2، ص 578.

⁵³ - المصدر نفسه، ق 3، ج 1، ص 21.

⁵⁴ - سعد عبد الله البشري، الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس، ص 217 - 223.

⁵⁵ - شيرين السيد عبده، الاتصال الوثائقي في الأندلس، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، ص 158.

⁵⁶ - أحمد أبو زيد: نظام الوقف الإسلامي، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة (الإيسيسكو)، الرباط، (1421هـ / 2000م)، ص 64 - 68.

⁵⁷ - أنور محمود زناتي، المرجع السابق، ص 43.